تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة
ومركزيّة الإعراب فيها

The hierarchy of grammatical levels in arabic grammatical theory
and the centrality of syntax in it.

د. عصام عرعاري

كلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة

تونس

issamaraari@gmail.com

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ومركزيّة الإعراب فيها

د. عصام عرعاري

الملخّص:

احتفت الثّقافة العربيّة لا سيّما في الفترة الممتدّة بين القرنين الثّاني والسّادس للهجرة بعمليّة التّخاطب، فتنوّعت المؤلّفات وتعدّدت الدّراسات النّحويّة والأدبيّة والبلاغيّة التي ضبطت جملة من القوانين المسيّرة لمبدإ التّفاهم الخاضع بدوره لمفهوم النّظام والانسجام داخل اللّغة المستعملة. وهو ما من شأنه أن يضمن للخطاب تبليغ مقاصده، إذ الغرض ممّا نقول هو "الفهم والإفهام". وعلى هذا الأساس خُلق النّظام النّحوي والنّظريّة النّحويّة العربيّة بمستوياتها المختلفة (الصّوتيّة والصّرفيّة والمعجميّة والتّركيبيّة والدّلاليّة) للإبانة عن المعاني. وهنا تبرز مكانة "الإعراب" الذي يحتلّ المركز فيها، "إذ عُلم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتّى يكون هو المستخرج لها" على حدّ عبارة "عبد القاهر الجرجاني". وهذا ما سنعمل على إبرازه في هذه الورقة البحثيّة التي سنركّز فيها على قيمة الإعراب في مستوى التّفريق بين المعاني.

كلمات مفاتيح: الإعراب، النّظريّة، النّحو، المعنى، النّظام.

Abstract:

Communication was celebrated in the Arab civilization especially between the second sixth centuries of “alhijra”. As a result, there was a great variety in writings and grammatical, literary and rhetorical studies that regulated a range of rules guiding the principle of understanding which in turn adhered to the concept of coherence and cohesion with the language in use. This was meant to make discourse meaningful as the end was to achieve understandability. In this light, the grammatical system and theory were devised- at several levels: (phonetics, conjugation, lexic, syntax and semantics. . .) to unveil the meanings. Here emerges parsing as at the heart of the aforementioned theory, “It has been known that meanings remain detained in their terms until parsing comes in to decipher them and that intentions are latent within until it elicits them”, as “ABDALKAHER ALJORJANI” puts it. This paper is intended to highlight the importance of parsing in the distinction between meanings.

Key words: parsing, theory, grammar, meaning, system.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

③ "مَرَرْتُ بزيدٍ".

④ "لمْ يأْتِ زيدٌ".

فالرّفع والنّصب والجرّ والجزم محلاّت إعرابيّة تفرّق بين معاني الألفاظ المكرّرة، «فالرّفع مثلا علم الفاعليّة أي علامتها»[1]، على حدّ عبارة الرّضي الاستراباذي الذي عرّف المعرب بقوله: «سُمّي المعرب معربا لأنّ الإعراب إبانة المعنى والكشف عنه»[(2)]. وقد اشترط في ذلك مجيء الإعراب في آخر الكلمة للدلالة على وظيفتها النحويّة النظميّة حتى أنّ علامات الإعراب تدخل على الاسم مثلا فتجعله منتميا إلى عمدة الكلام أو فضْلته، يقول في هذا السّياق: «إنّما جُعل الإعراب في آخر الكلمة لأنه دالّ على وصف الاسم أي كونه عمدة أو فضلة»[3]، وبذلك فعلْم الإعراب مهمّ في الفصل بين معاني الألفاظ، «إذ يبيّن فاضلَها من مفضولها»[4].

وانطلاقا من تعريف سيبويه للإعراب جاءت عدّة دراسات أخرى متوسّعة في مفهومه، إذ هو «تغيير يلحق أواخرَ الكلم»[5]. فقد أفرده ابن جنيّ بباب مستقلّ في كتاب "الخصائص" وسمّه بـ"باب القول على الإعراب"، معرّفا إيّاه تعريفا مهمّا بقوله: «هو الإبانة على المعاني بالألفاظ»[6]، محدّدا موقفه من ذلك في أمثلة:

- "شكرَ سعيدا أبوه"
- "أكرمَ سعيدا أباه"

} الرّفع للفاعل + النصّب للمفعول ⟸ الإفادة والوضوح.

وتبعا لذلك يقول: «أعربتُ عن الشيء إذا أوضحتُ عنه وفلانٌ مُعرب عمّا في نفسه، أي مبين له وموضّح له»[7].

وتظهر الغاية الأساسيّة من استعمال المتكلّم للإعراب في توضيح المعاني وبيانها تحقيقا للفائدة أو الإفادة، حتّى أنّ "السيوطي" اعتبره تمييزا للمعاني، إذ يقول في كتاب "المزهر في علوم اللغة وأنواعها": «الإعراب فيه تميّز المعاني وفيه يوقف على أغراض المتكلّمين وذلك أنّ قائلا لو قال غير معرب:

- "ما أحسن زيد"، لم يوقف على مراده، فإذا قال:
- "ما أحْسَنَ زيدًا!"
- "ما أحسنُ زيدًا؟"
- " ما أحسنَ زيدٌ

1- الرّضي الاستراباذي: شرح الكافية في النّحو، وبهامشه حاشية السّيد شريف الجرجاني، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، (د.ط.ت)، ج1، ص24.

2- الرّضي الاستراباذي: شرح الكافية في النّحو، وبهامشه حاشية السّيد شريف الجرجاني، ص24.

3- المصدر نفسه، ص25.

4- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح محمّد عبده ومحمّد محمود التّركزي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت لبنان، 1978، ص6.

5- محمد بن أبي سعيد الأنباري: أسرار العربيّة، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ص18.

6- أبو الفتح عثمان بن جنّي: كتاب الخصائص، تحقيق محمّد علي النّجار، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ط4، 1999، ج1، ص36.

7- المصدر نفسه، ص37.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

لقد فهم عبد القاهر الجرجاني هذه المنزلة المحوريّة الرّفيعة للإعراب، إذ عبّر عنها في مصنّفه "دلائل الإعجاز" معتبرا أنّ الإعراب مفتاح معاني الألفاظ: «قد عُلم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنّه المعيار الذي لا يُتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتى يُعرض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه»[1]، ونذكر هنا مثلا قوله تعالى: ﴿ *إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ* ﴾[2]، ﴿ *أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ* ﴾[3]، فلو قمنا برفع لفظ الجلالة في المثال الأوّل ونصب لفظ رسوله في المثال الثاني لصار المعنى:

- أنّ الله هو الذي يخشى العلماءَ ويخاف منهم.
- أنّ الله بريء من المشركين ومن رسوله أيضا.

ألا ترى كيف فرّق الإعرابُ بين هذه المعاني المتباينة، وما العلامات الإعرابيّة إلاّ وسيلة لتلك المعاني.

لقد انبنت النظريّة العربيّة على فكرة أساسيّة مفادها أنّ مركز النحو هو الإعراب الذي يتّصل بدوره بمفهوم العامل والمعمول أو المسند والمسند إليه، وما ينجرّ عنهما من معان، وهذه الفكرة الرّئيسيّة أكّدها الأستاذ خالد ميلاد بقوله: «إنّ العمل الإعرابيّ مفهوم اعتمده النّحاة لتعليل ظاهرة الإعراب الذي اعتبروه معنى يأتلف بالتّركيب والتعلّق واختلاف الحركات»[4]، وعليه، فالعمل والإعراب هما العاملان الرئيسيان المحقّقان لتناسب العناصر داخل التّركيب بقوله: «ليس العمل في عُرف نُحاتِنا سوى معنى أثمرته العلاقة المجرّدة بين العامل والمعمول، حيث تكون العلاقة المولّدة هي الإسناد»[5]، وهذه العلاقة الإسناديّة كما بيّنها النحاة العرب تقوم على الفائدة أو الإفادة وبالتالي تؤدي إلى معنى.

وقد كان الاستراباذي في "شرح الكفاية في النّحو" واعيا كلّ الوعي بأهميّة العامل، ولذلك حدّد الهدف من وجوده بقوله: «العامل هو ما به يتقوّم المعنى»[6]، ففي الجملة التالية:

يتحدّد المعنى المجرّد الحاصل من جمع العامل مع المعمول (المسند+ المسند إليه)، وبذلك تمّ اعتبار أنه «لا بدّ لكلّ عمل من عامل»[7]، فعمل الإخبار في المثال السابق يحققه وجود العامل والمعمول، أي وجود

1- المصدر نفسه، ص23.
2- سورة فاطر الآية: 28.
3- سورة التوبة الآية: 3.
4- خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، نشر جامعة منّوبة، كلّية الآداب منّوبة والمؤسسة العربية للتّوزيع بتونس، ط1، 2001، ص525.
5- خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، مرجع سابق، ص527.
6- الرّضي الاستراباذي: شرح الكافية في النحو، مصدر سابق، ج1، ص25.
7- خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، مرجع سابق، ص526.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

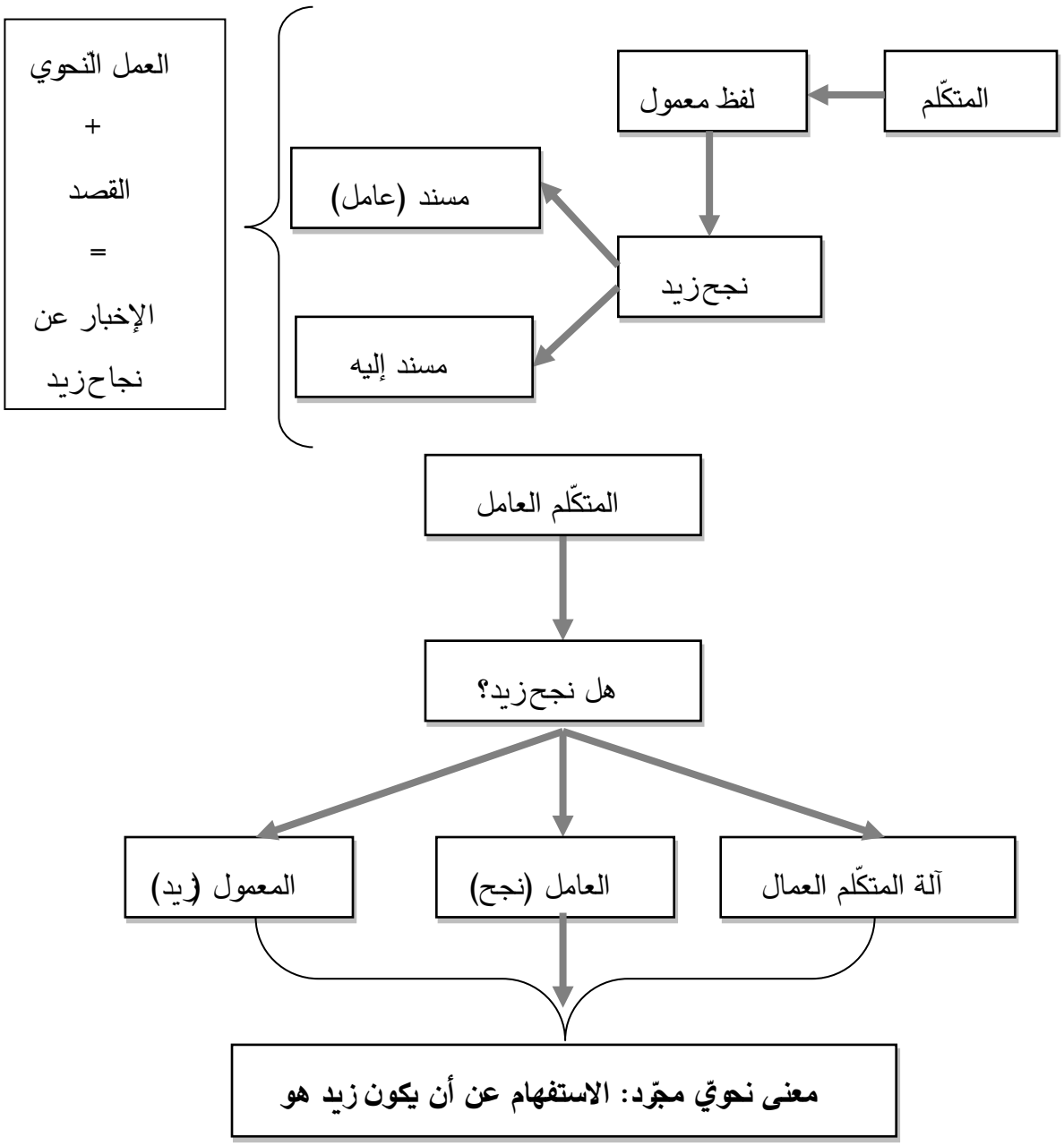

ومن هذا المنطلق نستنتج أنه «كلّما تعلّق اسم باسم أو فعل باسم، دلّ ذلك على إنشاء نحويّ يُحدثه المتكلّم حينما وُجد ذلك التعلّق»[1].

وهذا الأمر يبرز دور المتكلّم في بناء الكلام، فهو «المعرب العامل الحقيقي المختفي وراء الألفاظ والعلامات الظاهرة»[2].

ونظرا لأهميّة العوامل في استغناء الكلام وقيام المعنى، فإنّ ابن جنيّ قد قسّمها في كتاب "الخصائص" إلى نوعين في قوله: «إنّما قال النحويّون... عامل لفظيّ وعامل معنويّ ليريْكَ أنّ بعض العمل يأتي مسبّبا عن

1- خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، مرجع سابق، ص535.
2- خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، مرجع سابق، ص532-533.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

هذا إلى جانب:

- التمييز بين المذكّر والمؤنّث في الصّفات والمشتقات: سليم/سليمة، قائل/قائلة، فرح/فرحة...

- التمييز بين المذكّر والمؤنّث في اسم الجنس: نحل/نحلة، ورد/وردة...

وضمن هذا المجال أكّد العلماء العرب على أهميّة جنس الكلمة (مؤنث، مذكّر) في السّياق التركيبي الذي قلنا أنّ الإسناد يضطلع فيه بدور أساسي في بناء الفائدة، فقولنا مثلا:

- زيدٌ تضحكُ.
- بشرى يضحك.

لا صحّة له من جهة "التناسب" الذي هو تطابق في الجنس.

وبهذا المعنى يصبح الجنس في إطار "المناسبة والتناسب" مقوّما أساسيّا من مقوّمات ضمان الفائدة والمقصد المراد من التّأليف، أي ضمان إبلاغيّة الرسالة والخطاب، ومن ثمّة تمّ اعتباره من أوكد العناصر المساهمة في اتّساق الجملة وترابطها.

ومن هنا نستنتج أنّ "مبدأ المناسبة" يوجّه مقولة الجنس النحوي في التركيب ويساهم في التحام عناصر التأليف، ولذلك يعتبر التذكير والتأنيث شكلا نحويّا بيانيّا في الآن ذاته في إطار العرف الاجتماعي الذي يقوم على مصطلحات التواضع والتواطؤ التي هي من مرادفات المناسبة في الاستعمال.

2-2- ظاهرة التعيين (التعريف/التنكير):

اهتمّ النحاة العرب بظاهرة التّعيين باعتبارها من مقوّمات تحقّق المعنى والفائدة في الكلام، فقد تحدّث عنها سيبويه في معرض حديثه عن الإسناد، حيث اشترط في المبتدأ (المسند إليه) أن لا يكون "نكرة محضة" تجنّبا للّبس وابتعاد الخطاب عن مقصده وهو ما نجده في الأمثلة التالية:

- كان إنسانٌ حليما

- كان رجلٌ منطلقا

على اعتبار أنّ الجملتين غير مفيدتين للسّامع، ومن ثمّة فهما لاحنتان، والعرب في سلوكهم هذا المسلك في أحاديثهم كرهوا أن يقربوا باب لبُسَ أي كرهوا أن يبدؤوا بما فيه اللّبس لئلاّ يقع تشويش على المخاطَب في تلقّي الرسالة الإبلاغيّة»[1].

وبناء على فكرة سيبويه فقد توسّعت الدراسات النحويّة العربيّة، فعبد القاهر الجرجاني على وجه الخصوص في "دلائل الإعجاز" مثلا خصّص جزءا لظاهرة التّعيين محلّلا فيه الفروق النّاتجة عن هذه الظاهرة. ومن أمثلة ذلك الفروق في الإثبات، «أنّك تقول زيدٌ منطلقٌ وزيدٌ المنطلق، والمنطلق زيد، فيكون لك في كلّ واحد من هذه الأحوال غرض خاصّ وفائدة لا تكون في الباقي: اِعلمْ أنّكَ إذا قلتَ:

1- مسعود صحراوي: التّداوليّة عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، دار الطّليعة بيروت لبنان، ط1، 2005، ص189.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

مجلة نقد وتنوير – العدد العاشر - السنة الثالثة ـــــــ

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

2-4- الفصل والوصل:

هذا المفهوم نجد آثاره خاصّة عند صاحب كتاب "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، إذ بيّن أنه «قد بلغ من قوّة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئل عنها فقال: معرفة الفصل والوصل»[1]. ومن أمثلة ذلك قولكَ:

- «"زيدٌ طويل القامة وعمرو شاعرٌ": كان خلافا لأنه لا مشاكلة ولا تعلّق بين طول القامة وبين الشعر، وإنّما الواجب أن يُقال: "زيدٌ كاتبٌ وعمرو شاعر"، "زيدٌ طويل القامة وعمرو قصير"»[2].

أفلا ترى كيف ساهم حرف العطف "الواو" في وصل الكلام بعضه ببعض حتى أدّت الجملة بأكملها معنى مفيدا يقبله النظام العام للتّواصل اللّغوي.

ومن بين الحروف الأخرى التي لا تفيد أيّة معنى وهي منعزلة عن سياق التركيب نذكر "الفاء"، "ثم"، "أو"... فتظهر أهميّتها في التركيب واستعمالها المخصوص داخل النظام النحوي، فإذا قلتَ:

- «أعطاني فشكرتُهُ ⟵ ظهر بالفاء أنّ الشكر كان معقّبا على العطاء مسبّبا له.
- خرجتُ ثم خرج زيد ⟵ أفادت "ثم" أنّ خروجه كان بعد خروجك وأنّ مهلة وقعت بينهما.
- يعطيكَ أو يَكْسوكَ ⟵ دلّت "أو" على أنه يفعل واحدا منهما لا بعينه.
- مرَرْتُ برجل خُلُقه حسن وخلقه قبيح ⟵ أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى.
- هو يضرّ وينفع ⟵ أفادت "الواو" أنك أوجبتَ له الفعلين جميعا»[3].

فإنّك تلاحظ أنّ حروف الرّبط ساهمت في وصل الكلام بعضه ببعض حتى لكأنّه "سبيكة واحدة"، فلو عمدت إلى حذف هذه الأدوات من نسق الكلام لأصبحت المفردات داخل هذه البنى النحويّة غير مستقيمة، ولانعدم المعنى من ورائها وبالتالي عدم تحقيقها للإفادة.

وعليه، فإنّ صحّة الكلام تتحقّق من خلال استحضار مفهوم التّلاؤم عند استعمال هذه الحروف التي تسهم في تناسب الوحدات وتتاليها داخل التركيب، وبهذا المعنى يعتبر مبدأ المناسبة متدخّلا أيضا في هذا المستوى.

وخلاصة ما نذهب إليه من خلال تتبّعنا لمفهوم الإعراب أنّ النظريّة اللّغويّة العربيّة تقوم أساسا على مفهوم "العمل النحوي" الذي يحتلّ فيه "الإعراب" المركز الذي يقوم بمهمّة الإبانة عن المعاني، «وأنّ العامل الحقيقي الواضع للمعاني النحويّة في ائتلافها إنّما هو المتكلّم»[4] الذي يوظّف "مبدأ المناسبة" في المستويات النحويّة المختلفة (صوتيّة، صرفيّة، اشتقاقيّة، تركيبيّة، معجميّة...) والاعتبارات المتعدّدة (التقديم والتأخير، التذكير والتأنيث، الفصل والوصل، التعريف والتنكير...). وهو ما نلخّصه في الخطاطة التالية:

1- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، مصدر سابق، ص170.
2- المصدر نفسه، ص143.
3- المصدر نفسه: ص171-172-173-174.
4- خالد ميلاد: الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدّلالة: دراسة نحويّة تداوليّة، مرجع سابق، ص 528.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

مجلة نقد وتنوير – العدد العاشر - السنة الثالثة ـــــــ

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

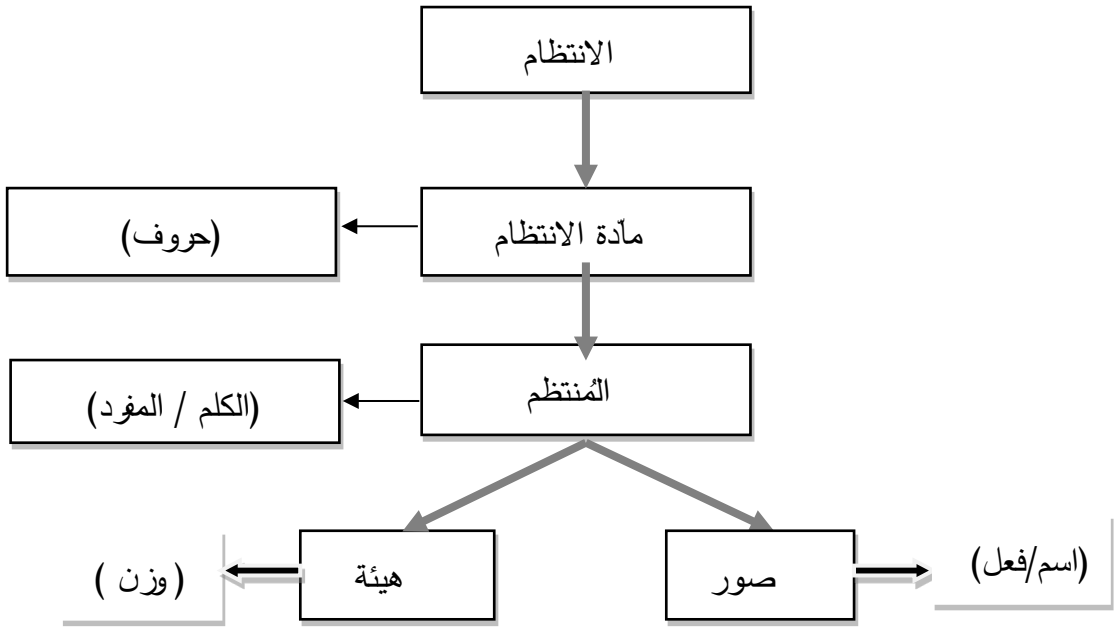

والنّظم في علم النّحو هو انتظام للمعاني والكلم في سلك التركيب، وهو ما يعطينا معنى واحدا من مجموعها، أي يُعطينا معنى الجملة كاملة، أي علاقة المسند بالمسند إليه وبالمتمّمات. والمحدث للانتظام في التركيب هو الإعراب والتعلّق، وهو ما يبيّنه قول السكّاكي في حدّه للنحو بأنه: «أن تنحو معرفة كيفيّة التركيب بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا»[1].

وكيفيّة التركيب حسب السكاكي تتطلّب هيئة أو هيئات أو مناسبة يجب مراعاتها، والمقصود بالهيئات هنا هي تلك العلاقات التركيبية الحاصلة بين الألفاظ والتعلّق القائم بين معانيها على وجه يقبله النّظام ومبدأ الائتلاف، وهذا المعنى أكّده صاحب "مفتاح العلوم" بقوله: «وأعني بكيفيّة التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات»[2]، وهو ما يعطينا أبنية نحويّة مجرّدة تمثّل مدار اشتغال النحو، مثال:

«- هو الحقّ بيّنا.

- الحقّ بيّنٌ.
- جاء زيد راكبا.
- زيدٌ راكبٌ.
- ضُربَ اللّصُّ مكْتوفًا.
- اللّصُّ مكتوفٌ»[3].

1- أبو يعقوب يوسف السّكّاكي: مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص33.
2- المصدر نفسه، ص33.
3- مجدي بن صوف: علم الأدب عند السكّاكي، مرجع سابق، ص89.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

وبذلك يتقرّر الانتظام – بما هو تناسب- «في أنّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال»[1]، على حدّ عبارة السّكاكي.

4- الخاتمة:

على هذه السّبيل فهم نُحاتُنا أنّ هذه المصطلحات: "النظام"، "الإعراب" "المناسبة"، "النّظم"، صورة للنّظام النّحوي. ومن هذا المنطلق بيّنوا أنّ "الإعراب" حاصل في التركيب، ولذلك سعوا إلى تأكيد أنّ المفردات أو الوحدات التّلفّظيّة تكتسب قيمتها إلاّ عند دخولها في التركيب الذي ينظّمه الإعراب ويبين عن دلالاته، وهو ما وجده السكاكي في مصطلح "تربية الفائدة" في قوله: «إذا كان المراد تربية الفائدة كما إذا قيّدته بشيء ممّا يتّصل به من نحو المصدر كنحو: "ضُربتُ ضربا شديدا"، أو ظرف زمان كنحو: "ضربت يوم الجمعة"، أو ظرف مكان كنحو: ضُربتُ أمامكَ»[2].وقد توسّع مجدي بن صوف في بيان هذا المصطلح، فبيّن أنه «إذا كانت الفائدة في النّحو أو المعاني تكون قائمة على الإسناد، فإنّ تربية الفائدة تقوم على تمام الإسناد، وتقييد الفعل بالمفاعيل كالمفعول المطلق أو الظرف أو الحال... التي يعتبرها السكاكي مربّية للفائدة الحاصلة أصلا في الإسناد مطلقا...»[3].

وعلى هذا الأساس إذن نتوصّل إلى أنّ "النّظم" مظهر من مظاهر الانتظام الذي بناه صاحب "مفتاح العلوم" على مفهوم الفائدة، «هذا المفهوم الذي اقترن ببنية الإسناد أوّلا، ثم المتكلّم البليغ ثانيا، وأخيرا بما يفيض من هذه الفائدة من أثر اقتضاء الفعل لبعض المتمّمات ممّا أعطانا مفهوم "تربية الفائدة"»[4]، المحقّق في البنية النحويّة المجرّدة بمستوياتها المتنوّعة (الصّوتيّة والصّرفية والمعجميّة والتّركيبيّة والدّلاليّة)، التي يشكّل فيها الإعراب قطب الرّحى في نظريّة المعنى عبر تفريقه بين استعمالات الألفاظ داخل نظام أو نسق الجملة المؤلّفة من مجموعة التّوليفات والوحدات المعجميّة طبقا لما تقتضيه المقولات النّحوية المختلفة.

1- أبو يعقوب يوسف السّكّاكي: مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص76.
2- المصدر نفسه، ص90.
3- مجدي بن صوف: علم الأدب عند السكّاكي، مرجع سابق، ص238.
4- مجدي بن صوف: علم الأدب عند السكّاكي، مرجع سابق، ص238.

تَراتبيّة المستويات النّحويّة في النّظرية النّحويّة العربيّة ـــــــ

مجلة نقد وتنوير – العدد العاشر - السنة الثالثة ـــــــ